جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

موافقة وزارة الإعلام

رقم: ٧٤٧٧٧ تاريخ: ٢٠٠٣/٧/١

دار الفيحاء

للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - حلبوني - ص.ب: ١٣٤٦١

هاتف: ٢٢٣٦٩٣٣ - فاكس: ٢٢٣٠٢٠٨

بيروت - فردان - خلف سيار الدرك

هاتف: ٠٣/٦٦٨٤٨٩ - فاكس: ٠١/٧٩٨٤٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وإمام الحامدين وخير الساجدين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه المجاهدين الصابرين ، ومن سار على هديه وهديهم من أمته أجمعين وبعد :

فهذا كتاب من نفائس ما ألف الشيخ الزاهد الورع ، العامل العالم ، ابن قيم الجوزية ، أفاض فيه القول في التعريف بخلقين من أخلاق المؤمنين المسلمين (الصبر والشكر) حيث استقصى ما ورد في بيان منزلة كلّ خلقٍ منهما ، مستدلاً بآيات الكتاب الكريم ، وأحاديث النبيِّ الأمين ﷺ ، مُعَرِّجاً على آثار الصَّحابة والتابعين ، وأعلام الزُّهاد والصابرين .

ولم يَنْس أَنْ يُعرِّج فيه على قضية كثر الجدل حولها ، فعقد مناظرةً بين فريقين ، فريق يرى تفضيل الغِنَى على الفقر ، وفريق يرى العكس ، حيث أَدلى الفريق الثاني بأَدلَّته بترجيح حال الفقير الصابر على الغني الشاكر ، ومن ثم ردَّ عليهم الفريق الأول مفندين مستدلين بما يرونه الحق .

وقد خَلص الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى من ذلك كلِّه إلى القول بأَنَّ التفضيل في الإسلام ليس إلا بالتقوى : « **لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى** » .

فالفضيلة للغني الشاكر بمقدار تقواه ، وكذلك الحال بالنسبة للفقير الصابر

وقد بيَّن رحمه الله بالبيان الواضح الجلي الذي لا لَبْسَ فيه أَنَّ الإنسان المؤمن هو بحاجة للصبر والشكر في نفس الوقت ، ولكن قد يغلب أَحدهما على الآخر في بعض الأَحيان .

فالغنى بحاجة إلى صبر وشكر ، والفقر بحاجة إليهما أيضاً ، حتى يبقى الإنسان واقفاً عند حدود الله تعالى مستحقاً للثواب منه تفضلاً .

ونظراً لأهمية هذا الكتاب ، ودقة معالجته لهذا الموضوع فقد كثرت العناية به وتعددت طبعاته .

وقد حاولت في هذه الطبعة أَنْ أُصَحِّحَ ما وقعت فيه الطبعات السابقة من أَوهام وأَخطاء .

إضافة إلى ما تقدَّم فقد حاولت أَنْ أَستوعِب كل آثاره وأَحاديثه تخريجاً وفق منهج معتدل .

فما كان من الأَحاديث في الصحيحين أَو أَحدهما اكتفيتُ بالعزو إلى الصحيح ، إلا إِنْ كان في عزوه إلى مصدر آخر زيادة فائدة .

وكذلك الحال فيما كان في السنن الأَربعة (أَبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه) فإني لا أَتجاوز العزو إليها أَو إلى أحدها إلا لزيادة فائدة من بيان كثرة مخرجين أو نص على تصحيح أو تحسين للحديث .

وأما ما كان من الأحاديث والآثار خارج هذه الكتب فإني أحاول استيعاب التخريج .

هذا وقد جاءت الأحاديث والآثار الواردة في هذا الكتاب صالحة في جملتها للاحتجاج في مثل هذا الموضوع ، فلم أَرغب أَن أشوش ذهن القارىء وفكره بالكلام على حال الحديث وأحوال رواته ، إلا عندما يفيد ذلك فائدة جلية .

وسيلاحظ القارىء الكريم أَنني قمتُ بتخريج الأَحاديث والآثار التي لم يذكرها المؤلف بنصِّها وإِنَّما أَشار إِليها إِشارة عابرة ، حيث أُورِدها في الهامش بنصِّها مع التخريج .

وكذلك أفعل في الأَحاديث والآثار التي يقتصر المؤلف على إِيراد جزءٍ منها ، فإِنِّي أَحرصُ على ذكرها بتمامها في الهامش ، إِلا نادراً .

وهذا ما لا تجده في كلِّ الطبعات السابقة .

ولم أَنس أَنْ أَشرح الكلمات الغريبة التي تشتد الحاجة ـ فيما أَرى ـ إِلى بيانها وتوضيحها .

أَسأل الله تعالى أَن يجعله عملاً مبروراً ، وأَنْ يوفقنا لما يُحبُّ ويرضى ، وأَن يرزقنا الإِخلاص ويوفقنا لشكره وذكره .

إِنَّه على ما يشاء قدير .

دمشق ١٠/ ذي الحجة / ١٤٢٣ هـ

١١/ ٢/ ٢٠٠٣

وكتب

بديع السيد اللحام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

الحمد لله الصَّبور الشَّكور العليِّ الكبير ، السَّميع البصير ، العليم القدير الذي شملت قدرته كلَّ مقْدور ، وجرتْ مشيئتُه في خلقه بتصاريف الأُمور ، وأَسمَعَت دعوتُه لليوم الموعود أَصحابَ القبور ، قدَّر مقاديرَ الخلائق وآجالَهُم ، وكتبَ آثارَهم وأَعمالَهم ، وقسَّم بينهم معايشهم وأَمْوالَهم ، وخلق الموت والحياة ليبلوهم أَيهم أَحسنُ عملاً ، وهو العزيز الغفور القاهر القادر فكلُّ عسيرٍ عليه يسير ، وهو المَوْلى النَّصير ، فنِعْم المَوْلى ونِعْم النَّصير ، يُسبِّح له ما في السَّماوات وما في الأَرْض ، له المُلك وله الحَمْد وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ ، هو الذي خلَقَكُم فمنكم كافر ومنكم مؤْمِن ، والله بما تعملونَ بصير ، خلق السَّماوات والأَرضَ بالحقِّ وصوَّرَكم فأَحْسَن صوَرَكم ، وإِليه المصير ، يعلم ما تُسرونَ وما تُعْلِنون ، والله عليمٌ بذاتِ الصُّدور .

وأَشهدُ أَنْ لا إِله إِلاَّ الله وحدَه لا شريك له ، إِلهٌ جلَّ عن الشَّبيه والنَّظير ، وتعالى عن الشَّريك والظَّهير ، وتقدَّس عن تعطيل المُلْحِدين ، كما تنزَّه عن شَبَه المخلوقين فـ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

وأَشهدُ أَنَّ محمداً عبده ورسوله وخِيْرَته من بَرِيَّتِه وصَفْوته من خَليقَتِه وأَمينه على وحْيه ، وسفيره بينه وبين عِبادِه ، أَعرف الخلق به ، وأَقوَمهم بخشيَتِه ، وأَنصحهم لأُمَّتِه ، وأَصبْرهم لِحُكْمِه ، وأَشكرهم لِنعَمِه ، وأَقربهم إِليه وسيلة ، وأَعلاهم عنده مَنْزِلة ، وأَعظمهم عنده جاهاً ، وأَوسعهم عنده شفاعةً ، بعثَه إِلى الجِنَّة داعياً وللإِيمان منادياً وفي مرضاتِه ساعياً وبالمعروف آمِراً وعن المُنْكرِ ناهياً ، فبلَّغ رسالات ربِّه ، وصدَع بأَمْرِه ، وتحمَّل في مرضاتِه ما لم يتحمَّلْه بشرٌ سواه ، وقام لله بالصَّبْر والشُّكر حقَّ القيام ، حتَّى بلَغ رِضاه ، فثبتَ في مقام الصَّبْر ، حتَّى لم يلْحقه أَحدٌ من الصَّابرِيْن ، وترقَّى في درجة الشُّكر حتَّى علا فوق جميع الشَّاكرين ، فحمِدَهُ الله وملائكتُه ورُسلُه وجميع المؤمنين ، ولذلِك

خُصَّ بلواء الحمْد دون جميع العالمين ، فآدم تحت لوائِه ، ومن دونه من الأَنْبياء والمرسلين [1] ، وجعل الحمد فاتحة كتابه الذي أَنْزله عليه كذلك فيما بلَغَنا وفي التوارة والإِنجيل ، وجعله آخِر دعوى أَهل ثوابه الذين هداهم على يديْه ، وسمّى أُمَّته الحامدين قبل أَنْ يخرجهم إِلى الوجود لحمْدهم له على السَّراء والضَّرّاء والشِّدَّة والرَّخاء [2] ، وجعلهم أَسبق الأُمم إِلى دار الثَّواب والجزاء ، فأَقْرَبُ الخَلْق إِلى لوائِه أَكثرهم حمداً لله وذكراً ، كما أَنَّ أَعلاهم منْزلةً أَكثرهم صَبْراً وشُكْراً ، فصلَّى الله وملائكتُه وأَنْبياؤه ورُسلُه وجميعُ المؤمنين عليه كما وحَّد الله وعرَّف به ودعا إِلَيه وسلَّم تسليماً كثيراً .

أَما بعد :

فإِنَّ الله سبحانه جعل الصَّبْر جواداً لا يكبو ، وصارماً لا يَنْبو ، وجُنْداً لا يُهزم ، وحصناً حصيناً لا يُهدم ولا يُثْلَم ، فهو والنَّصر أَخوان شقيقان

رَضيعَـي لبـانِ ثَـدْيِ أُمٍّ تَقاسَما ... بِـأَسْحَـمَ داجٍ عَـوْضَ لا يتفـرَّقُ

فالنَّصر مع الصَّبْر ، والفرج مع الكرْب ، والعسر مع اليسر ، وهو أَنْصَر لصاحِبه من الرِّجال بلا عدَّة ولا عُدَد ، ومحلُّه من الظَّفَر كمحلِّ الرَّأس من الجسد .

---

(١) أَخرج الترمذيُّ في تفسير القرآن ، ومن سورة بني إِسرائيل ، رقم : (٣١٤٨) وفي أَبواب المناقب رقم : (٣٦٩٢) عن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسول الله ﷺ : « أنا سَيِّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فَخْر ، وبيدي لواء الحمْدِ ولا فخر ، وما من نبي يومئذٍ آدم فمن سواه إِلاَّ تحت لوائي ، وأَنا أَولُ من تنشقُّ عنه الأَرض ولا فخر » وقال : هذا حديث حسن .
وأخرج في أَبوابِ المناقب ، رقم (٣٦١٠) عن أَنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أنا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجاً إِذا بُعثوا وأنا خَطيبُهُم إِذا وفَدوا ، وأَنَا مُبشِّرُهُم إِذا أَيِسُوا . لواءُ الحمدِ يومئذٍ بيدِي ، وأَنا أَكرمُ وَلَدِ آدمَ على رَبِّي ولا فَخْرَ » . وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيْب .

(٢) جاء التصريح بذلك في أكثر من حديث وكلها لا يخلو من ضعف ، إِلاَّ أَنَّ مجموعها يؤنس أَنَّ للحديث أَصلاً يُركن إِليه ، ومن هذه الأَحاديث ما روي عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسولُ الله ﷺ : « صِفَتي أَحمد المتوكل ليسَ بفظٍّ ولا غليظٍ ، يَجزِي بالحسنة الحسنة ، ولا يُكافىء بالسيىء ، مولده بمكة ومهاجره بطيبة وأُمَّته الحمَّادون ، يأْتَزِرونَ على أَنصافهم ، ويوضِّئون أَطرافهم ، أَناجيلُهم في صدورهم ، يصفُّون للصَّلاة كما يصفُّون للقتال ، قُربانهم الذي يتقرَّبون به إِليَّ دماؤهم ، رهبان بالليل ليوثٌ بالنهار » . رواه الطبراني في الكبير ، (١٠/ رقم ١٠٠٤٦) قال في مجمع الزوائد (٨/ ٤٨٥) : « وفيه من لم أعرفهم » .

ولقد ضمِن الوفيُّ الصَّادق لأَهْله في مُحْكم الكتاب أَنَّه يوفِّيهم أَجرهم بغير حساب ، وأَخبرهم أَنَّه معهم بهدايتِه ونصْره العزيز وفتْحِه المُبين ، فقال الله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] فظفِر الصَّابرون بهذه المعيَّة بخير الدنيا والآخرة ، وفازوا بها بنعمه الباطنة والظَّاهرة .

وجعل سبحانه الإِمامة في الدِّين منوطة بالصَّبْر واليقين ، فقال الله تعالى ـ وبقوله اهتدى المهتدون ـ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وأَخبر أَنَّ الصَّبْر خير لأَهْله مؤكداً باليمين ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] .

وأَخْبَر أَنَّ مع الصَّبْر والتَّقْوى لا يضرُّ كيد العدو ولو كان ذا تَسْليط ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

وأَخْبَر عن نبيِّه يوسف الصِّدِّيق أَنَّ صَبْره وتقواه أَوْصَلاه إِلى محلِّ العزِّ والتَّمْكين ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] .

وعلَّق الفَلاحَ بالصَّبْر والتَّقْوى فعقل ذلك عنه المؤمنون ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

وأَخبَر عنه محبَّته لأَهْله وفي ذلك أَعظم ترغيب للرَّاغبين ، فقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

ولقد بشَّر الصَّابرِيْن بثلاثٍ كلٌّ منها خير ممّا عليه أَهل الدُّنيا يتحاسدون ، فقال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥ـ١٥٧] .

وأَوْصى عباده بالاستعانة بالصَّبْر والصَّلاة على نوائب الدُّنيا والدِّين ، فقال تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] .

وجعل الفوز بالجنَّة والنَّجاة من النَّار لا يحظى به إِلاَّ الصَّابرون ، فقال تعالى : ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١١] .

وأَخبر أَنَّ الرَّغْبة في ثوابه والإِعْراض عن الدُّنيا وزينتها لا ينالها إِلاَّ أُولو الصَّبْر

الباب الأول

في معنى الصَّبْر لغة
واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها

أَصل هذه الكلمة هو : المنع والحبس[١] ، فالصَّبْر حبس النَّفس عن الجزَع ، واللِّسان عن التَّشكي ، والجوارح عن لطم الخدود وشقِّ الثياب ونحوهما .

ويقال : صَبَر يصْبِر صَبْراً ، وصَبَّر نفسه ، قال الله تعالى : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف : ٢٨] وقال عنترة :

فَصَبـرتُ عـارِفَـةً لـذلـك حُـرَّةً ... تَـرْسُـو ، إذا نَفْسُ الجبـان تَطَلَّـع

يقول : حبستُ نفساً عارفةً ، وهي نفسُ حرٍّ يأْنَف ، لا نفس عبدٍ لا أنفَة له ، وقوله : « ترسو »[٢] أَيْ تَثْبُتُ وتسكن إذا خافت نفس الجبان واضطربت .

ويقال : صَبَرتُ فلاناً إذا حبسته ، وصَبَّرتُه ـ بالتَّشديد ـ إذا حملته على الصَّبْر ، وفي حديث الذي أَمسك رجلاً وقتله آخر : « **يُقْتَل القاتل ويصَبَّر الصَّابر** »[٣] أي يُحْبَس للموت كما حَبَس من أَمسكه للموت .

وصبرت الرَّجل إذا قتلته صَبْراً ، أَي أَمسكته للقتل .

وصبرته أَيضا وأَصبرتُه إذا حبسته للحلف ، ومنه الحديث الصَّحيح : « **مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ صَبْرٍ لِيَقْتَطِعَ بِها مالَ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللهَ وَهوَ عَنْهُ مُعْرِض** »[٤] ومنه الحديث الذي في

(١) لسان العرب : مادة (صَبر) .

(٢) لسان العرب : مادة (عرف) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المُصنَّف : رقم : (٢٧٧٩٦) والدارقطني في السنن (٣/ ١٤٠) والبيهقي في السنن الكبرى : رقم : (١٥٨٠٩) عن إسماعيل بن أُمية مرفوعاً مُرسلاً ، ووقع في بعض رواياته : « ويحبس الممسك » .

(٤) أَخرجه البخاري في التفسير (آل عمران) باب : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ =

القسامة : « **ولا تصبر يمينه** »[١] حيثُ تُصبرُ الأَيْمان ، والمصبورة اليمين المحلوف عليها ، وفي الحديث : « **نَهى عَنِ المَصْبُورَة** »[٢] وهي الشاة والدجاجة ونحوهما تصبر للموت فتربط فترمى حيث تموت .

وفِعْل هذا الباب : صَبَرت أَصبِرَ ـ بالفتح في الماضي ، والكسر في المستقبل ـ وأَمَّا صَبَرت أَصْبُر ـ بالضم في المستقبل ـ فهو بمعنى الكفالة ، والصبير الكفيل ، كأَنَّه حبس نفسه للغرم ، ومنه قولهم : اصبرني أَي : اجعلني كفيلاً .

وقيل : أَصل الكلمة من الشِّدة والقوة ، ومنه الصَّبْر للدَّواء المعروف لشدَّة مرارته وكراهته .

قال الأَصمعي : إذا لقيَ الرجل الشِّدة بكمالها قيل : لقيها بأَصبارِها ، ومنه الصُّبر ـ بضم الصاد ـ للأَرض ذات الحصب لشدتها وصلابتها ، ومنه سميت الحرَّة (أُم صُبار) ومنه قولهم : وقع القوم في أَمرٍ صبّور ـ بتشديد الباء ـ أَي أَمر شديد .

ومنه صبارّة الشِّتاء ـ بتخفيف الباء وتشديد الراء ـ لشدة بَرْده .

وقيل : مأْخوذ من الجمع والضَّم ، فالصَّابر يجمع نفسه ويضمها عن الهلع والجزع .

ومنه صُبْرة الطَّعام ، وصبارة الحجارة .

والتَّحقيق أَنَّ في الصَّبْر المعاني الثلاثة : (المنع والشّدة والضّم) ويقال :

صَبَر إذا أَتى بالصَّبْر .

وتصَبَّر إذا تكلَّفه واستدعاه .

واصطبر إذا اكتسبه وتعلمه .

وصابر إذا وقف خصمه في مقام الصَّبْر .

= لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾ [٣٩] رقم : (٤٥٤٩) ومسلم في الإيمان ، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار ، رقم : (١٣٨) بلفظ : « وهو عليه غضبان » . من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار ، باب القسامة في الجاهلية رقم : (٣٨٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المُصنَّف : رقم : (٨٧١٨) والبيهقي في السنن الكبرى رقم : (١٧٤٠٧) وهو بنحوه عند الترمذيِّ رقم : (١٤٧٣) وابنِ خُزيمة : (٢٥٥٢) . من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .